الأدلة القواطع والبراهين
في إبطال أصول الملحدين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد : فإن الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كل علم صحيح نافع ودين صحيح، وإلى كل صلاح وخير، وخص محمدًا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة؛ فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية، إليهما ينتهي كل علم وحق وكمال. وقد وضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقي ونال الصفقة الخاسرة.

وأعظم الناس انحرافًا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وهم شرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. وقد أصلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضًا، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق.

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول «أرسطو» اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله.

وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه. وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه. وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم. وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت؟ فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله.

قال رحمه الله في نقض التأسيس لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث، والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال، من كلام أهل العلم والعقل والبيان. وهو أشبه بكلام قصاص الجهال، والمغالطين من كلام العلماء والمجادلين بالحق. وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي: كان صاحب خطب، ولم يكن صاحب حجج. بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج.

الوجه الثاني: أن يقال: ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية.

الوجه الثالث: أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيبًا في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطرابًا وضلالًا؛ فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس، والغلط في ذلك قليل نادر وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك، وكلامهم في ذلك غالبه حق وفيه باطل، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح في العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال. وقد اعترف أساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه وإنما يؤخذ فيه بالأولى والأخلق والأحرى فيه، فإذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علم ولا يقين في العلم الإلهي كيف يستدل بكلامهم فيه؟

الوجه الرابع: ما معنى قوله: فليستحدث لنفسه فطرة أخرى؟ والفطرة هي الخلقة التي فطر الله عباده عليها أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة، فهذا غير مقدور للبشر فإن الله فطر عباده عليها، أم تريد أن يترك ما فطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك؟ وهذا الذي يصلح أن تريده، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التي فطر عباده عليها، وهي طريقة المبتدعين المبدلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة..**». الحديث[1]. فأهل الكتاب المنزل بدلوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي بدلوا من فطرة الله التي فطر العباد عليها وغيروا منها ما غيروا، ولهذا قيل: إن أرسطو هذا بدل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن. والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة. وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته - خلقه وأمره - وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم - إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم - من

(١) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

هذا وهذا، كما بدل بنو إسرائيل القول الذي أمروا به، والعمل الذي أمروا به.

الوجه الخامس: أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله فيهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمن بالرسول، ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به. انتهى كلامه رحمه الله.

الوجه السادس: أن يقال: هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه، فإنه بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر نعمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله، المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، ومذكرين لهم بالأمر بما فطرت العقول على استحسانه؛ كالصدق والبر والإحسان والأخلاق الجميلة، وبالنهي عما فطرت العقول على استقباحه؛ من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟ وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد؟ وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، ما لا منتهى لشره وضرره.

الوجه السابع: أن يقال: هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغي، ورفض الإيمان بالكلية. فإن الإنسان في الأصل خلق ظلومًا جهولًا؛ ليس فيه هدى، ولا علم صحيح، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه. ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر إليها المكلفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية. فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدى

الله، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدًى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالًا ومآلًا، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمن تمسك بوصية هذا الملحد الضال فقد أمر بمحو ما جاءت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحي الشيطان، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحد ما جاءت به الرسل، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١].

الوجه الثامن: أن يقال: هذا الكلام باطل شرعًا وعقلًا.

أما الشرع: فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فطر الخلق؛ من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب؛ اعتقادًا وتخلقًا وتصديقًا ودعوة إليها وهداية لها من جميع الوجوه. ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية.

وأما العقل: فإن أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق والأخلاق العالية، التي من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقامًا،

فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه، بل ينكرونه أشد الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلا العقائد الباطلة؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلا الأخلاق الرذيلة السافلة؟ وماذا بعد الرشد إلا الغي والفساد؟

الوجه التاسع: أن يقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم معول لهدم العلوم كلها؛ لأن لازم ذلك يوجب ألا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد.

الوجه العاشر: أن يقال على وجه التنزل: أيهما أولى محو ما يقارب في القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه إلى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقادًا وتخلقًا تأتي بالغرائب المزعجة والخيالات المضحكة، أي هذه الحالة التي لا يرتضيها من له مسكة من عقل، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوي المستمد من معين الرسالة ومن هدى الله الذي هدى به الخلق، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهت صاحبه إلى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدي به إلى المطالب العالية، فمن سوى بين

الحالتين والقلبين فليبك على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه. فالعلوم التي لها أساس قوي تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدي بها، وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل؛ هي التي يعتبرها أولو الألباب، وينافسون في تحصيلها، ويرون إدراكها أجل نعمة أنعم الله بها عليهم. وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب التي يلج الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمان. فالعلوم والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور الوحي وبرهان الحقيقة، وتبني علومها وأعمالها على الإيمان.

الوجه الحادي عشر: أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة، فالله يقول: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[الأحقاف: ١٣] وفي الصحيح أنه ﷺ قال لمن قال له: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[١]. أي على الإيمان. وهؤلاء الملحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد التي لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد غيرها من قلوبكم، وشكوا لتستحدثوا علومًا وعقائد جديدة تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله.

الوجه الثاني عشر: أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشك فيها محال غير ممكن، ومن حاول ذلك فهو مكابر، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه؛ لأن الحق إذا تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل باطل، وزهق الباطل عند مقابلته. ولهذا قال

(١) مسلم (٣٨).

تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. وقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال عن كفار المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فهؤلاء الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل، ومقاومة ذلك بكل طريق، فرأوا هذا طريقًا راج على الأغمار وضعفاء البصائر، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. أما أولو البصائر والألباب فإنهم يسعون لإزالة ما وقع ويقع في القلوب من الشبهات والشهوات المعارضة للحق؛ فإن الشبهات والشهوات الواردة على القلوب تضعف علمها ويقينها وإيمانها. ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيح والبراهين الصادقة، فإن الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. وكذلك إزالة ما يقع في القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التي يقدمها صاحبها على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيح، فدواء ذلك بتوجيه القلب لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس، فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفق؛ أن يكون فطنًا في إدراك الحق وفي نفي الشبهات المنافية له، وأن يكون حسن القصد في ترجيح ما يرجحه الدليل الصحيح من المقالات.

الوجه الثالث عشر: أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه، وإلا فأهله من أكذب الناس، فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليدًا أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين.

الوجه الرابع عشر: قال الشيخ: ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين. وقد ذم الحيرة بقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أن من لم يكن عنده علم بالشيء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذي في القلوب لتتوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسنة ولإجماع العقلاء المعتبرين، متابعون لأئمتهم الضالين. انتهى.

الوجه الخامس عشر: أنه لو فرض وقدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خاليًا من الحق والباطل، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر ويزنها بحق وعدل وإنصاف وفهم صحيح فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضح له أن من سوَّى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوي بين الليل والنهار والضياء والظلمة، فكيف بمن فضل الإلحاد على دين رب العباد؟! فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار.

الوجه السادس عشر: أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل أن تقدح فيها الشبهات والتشكيكات بوجه من الوجوه، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة، نقلًا وعقلًا وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحًا، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل، ولم يكن له إليه نسبة بوجه من الوجوه؛ فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه

ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم، وسفاهة عقولهم، وسوء مقاصدهم.

الوجه السابع عشر: أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين:

أحدهما: أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون، ويعتقد ذلك ويعمل به.

الثاني: معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية، والوقوف على أسرارها وحكمها. فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقة ومحاربة لله ورسله، وإنما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها. فتبًّا لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله.

الوجه الثامن عشر: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمحق ما يقع في القلوب مما ينافي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل أو تخل به بالبراهين القاطعة الواضحة، ليكون الإيمان صحيحًا والقلب سليمًا من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة، والقرآن والسنة مملوءان من ذلك، وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك، فهم أئمة الكفر والجحود حادُّوا الله ورسله أعظم محادة.

الوجه التاسع عشر: أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل، خصوصًا خاتمهم وإمامهم محمدًا ﷺ - الإيمان بالقضاء والقدر، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا. والكتاب والسنة مملوءان من ذلك، وأن جميع الحوادث

مربوطة بقضاء الله وقدره، ونواصي العباد بيده، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله. فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير. وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسًا؛ لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة. وكفى بقول جهلًا وضلالًا أن يصل إلى هذا الحد الفظيع.

الوجه العشرون: أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه. فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة. وهذا باطل شرعًا وعقلًا:

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.

قال الشيخ: وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض، وليس سعادتها إلا فيه. فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم، ولم يستدلوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها. وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورًا كلية مقدرة في الذهن لا في الخارج، والعلوم الموروثة عن الأنبياء

أجل وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة إلى علمهم، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيدًا، واليسير منه عسيرًا، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق. والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحس الباطن والظاهر، وتعلم بالقياس التمثيلي، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم. انتهى.

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة. فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق، وتوضيح للحقائق، وتنبيه للعقول على توجيهها لكل علم نافع. ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، وأنكروا ما لم يحيطوا به علمًا، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذي تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفي ما أثبتوه وتثبت ما نفوه، ولا يزالون هكذا في أمر مريج حين كذبوا بالحق. وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين. فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكنت هؤلاء من لزوم الباطل.

الوجه الحادي والعشرون: أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكمل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها، وهي العلوم التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة، فسد هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم، وحصروا علومهم ومعارفهم في الأسباب المادية فقط، وتوسعوا فيها ومهروا

واخترعوا وبلغوا حيث انتهت إليه معارفهم وأفهامهم، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وبعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة، فوقعوا في أمر مريج، وتخبطت نظرياتهم. وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا في المواد الأولية وفي سبب الأسباب، فينقضون ما اتفقوا عليه، ويبطلون ما كانوا أسسوه، ولا يزالون كذلك ما داموا لم ينفذوا من الأسباب إلى مسببها، ومن المخلوقات إلى خالقها. فما داموا كذلك فإنهم لا يستطيعون الاستقرار على رأي جامع لجماعتهم ومسعد لهم في الدنيا والآخرة. ونهاية ما يصلون إليه ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. نسوا الله فنسيهم وتركهم في طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

الوجه الثاني والعشرون: أنهم حين أصلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها تجرءوا اجراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل، وتجرهموا بعقولهم[1] الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القدح بالرسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السماعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد، وأنكروا الرب تصريحًا وتعريضًا، وتدرجوا بذلك إلى القدح في جميع الأديان، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم، بل فضلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم. فأصل هذه آثاره الخبيثة، وهذه ثمراته السمية المنتنة الحنظلية، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يصغى إليه أو يبني عليه شيئًا من علومه ومعارفه؟ فإنه مفسد للأديان والعلوم، ومخبط للأذهان، فهو أعظم أصول الغي والضلال. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الوجه الثالث والعشرون: أن العلوم المدركة بالحس إذا نسبت إلى علوم الرسل - كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء على

(١) كذا، ولعل الصواب: «تجرهم عقولهم».

الخير والشر وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يسعد النفوس ويشقيها - كانت كقطرة في بحر لجي. فأمور الغيب التي تتوقف على إخبار الرسل ووحي الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة؛ إذ ضيقوا دائرة المعلومات جدًّا في مدركات حواسهم، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم، لأنهم أنكروا العلم الحقيقي النافع الذي يزكي النفوس ويسعدها ويرقيها في مدارج الكمال.

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به علوم الفلسفة وما نتج عنها، ونفوا العلم عما سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير، وما سواها فإما علوم ضارة، وإما قليلة النفع، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين. وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا، فما أضرها وأضر ثمراتها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

الوجه الرابع والعشرون: أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكمًا فظيعًا باطلًا، وهو أن الرجوع إلى الماضي رجعية فاسدة، وأنه يجب إهدار كل قديم. وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وقالوا: إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا في هذا الوقت الذي طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارة المهلكة، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير، وهذا من أعجب العجائب، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وخصوصًا سيدهم وإمامهم محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين - ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى وخواص الخلق لم يبلغوا سن الرشد، وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى الله البشر وأرشدهم إلى كل علم نافع صحيح وعمل صالح وخير ورشد وصلاح، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة هم الذين بلغوا سن الرشد؟! سبحانك هذا

بهتان عظيم. ويكفي تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة ببطلانه، فإن أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفيه تصرفاته ونتائج أعماله وثمراتها.

انظر إلى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدَوْا إلى كل عقيدة صالحة نافعة وإلى كل خلق جميل وعمل صالح، وكيف نهَوْا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد، وكيف تم بإرشادهم الصلاح الذي ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح، فهل تجد علمًا نافعًا أو خلقًا فاضلًا أو خيرًا ناميًا أو شرًّا مدفوعًا أو ضررًا مرفوعًا إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم؟

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك، فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشقوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم. وهذه المخترعات التي تكبروا بها وطغوا وبغوا هل توسلوا بها إلى الخير والحياة الطيبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحدًا إنكاره؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور. فيا من عافاه الله من هذه البلية ومنَّ عليه بهداية الرسل، احمد الله حمدًا كثيرًا، واشكره شكرًا متتابعًا، فإن الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة.

الوجه الخامس والعشرون: أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها. وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم، وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات

النفسية، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس مناها، ولم تقف عند حد فاستباحت كل قول وفعل محرم، ووقعوا في الإباحية المحضة، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالا منهم.

ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فجعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل! ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تغترر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال، فإن الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها، كان ضررًا كبيرًا على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر أن جحودهم لآياته أوجب لهم ألا ينتفعوا بما أوتوا من هذه الإدراكات، وصارت النعم جالبة للنقم. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. فهم عظموا علومهم التي تبجحوا بها وتكبروا وقاوموا الرسل وسخروا بما جاءتهم به الرسل فانحرفت علومهم إلى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون.

الوجه السادس والعشرون: قال الشيخ: ما أخبرت به الرسل من الغيب هي أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن في هذه الدار، وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك؛ ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقوله الفلاسفة، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشهدها أن تلك غيب وهذه شهادة، وكون الشيء غائبًا أو شاهدًا أمر إضافي بالنسبة إلينا، فإذا

غاب عنا كان غيبًا وإذا شهدناه كان شهادة. وليس هو فرقًا يعود إلى أن ذاته تعقل ولا تشاهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يشهدوا ويروا، والرب تعالى يمكن رؤيته بالأبصار، والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص. انتهى.

وهذا يبطل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة، فإنه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم، فإنكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها، وذلك مكابرة منهم ومباهتة.

وقال الشيخ: واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، فيقال لهم: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثًا وباطلًا، بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة، وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة فتسوي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته، سبحانه وتعالى، فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضًا، ومن سننه التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح

أحد المتماثلين بلا مرجح، فإن هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تتبدل ولا حكمة تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول، فإن السنة تقتضي تماثل الآحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم. اهـ.

الوجه السابع والعشرون: قال الشيخ: ما جاءت به الرسل، صلوات الله عليهم، لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها، ولا في علومهم ما يدل عليها. وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به، لزم أمران:

أحدهما: أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه.

الثاني: أن ما علموه خسيس بالنسبة إلى ما جهلوه، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة؟ والرسول أخبر عن أمور معينة، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم؛ لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيستهم لا تفيد إلا أمورًا كلية، وهذه أمور خاصة. وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في **الصحيحين** من غير وجه أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك؛ صغار الأعين ذلف الأنوف**[1] **حمر الخدود ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة**[2]»[3]. فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة فضلًا عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة؟

---

(١) قصر الأنف وانبطاحه.

(٢) أي التراس التي ألبست العقب شيئا فوق شيء.

(٣) البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٩١٢).

وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥هـ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شيء معين، وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن، ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجسامًا حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بإخبار الأنبياء وببراهين أخر إلا الجهل المحض، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرون بذلك، وكذلك أئمة الأطباء. وطريق هؤلاء الملاحدة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى.

وقال في سبب إلحاد بعض الملحدين: من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزًا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخل في علمه نفاها فخسر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالًا عليه. وهكذا تجد من عرف نوعًا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه يبقى بجهله نافيًا لما لا يعلمه، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]. وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئًا وصدقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفوه، فإن غالبهم أو كثيرًا منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا به علمًا. ويتفرع على هذا الأصل الباطل: الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرسل، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب، إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. انتهى.

الوجه الثامن والعشرون: أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على

إدراكات الحواس والتجارب. فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقية العوالم؛ عوالم السماوات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة.

وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال: إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه، فيقال: أولا: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الإنكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطؤهم في ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم، وهم متفقون على ذلك؟ والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم، وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم.

فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الحائرين ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ

أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [لقمان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الوجه التاسع والعشرون: أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم، فإنه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم، واعترفوا وخضعوا لها وشاهدوا ما فعله الله في الأرض، من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المكذبة. وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولم يشتهر ويتواتر شيء كاشتهارها وتواترها، ولم يعترف البشر بشيء من الأشياء أعظم من اعترافهم بها؛ لأنهم شاهدوها رأي عين ونقلتها الأمم قرنًا بعد قرن، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤].

الوجه الثلاثون: أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلة محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم، وهَذَوْا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم، فضلًا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وأنه الفاعل لما يريد، وأنه مبدع السماوات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيئته، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه، والحمد لله

على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد، وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين.

الوجه الحادي والثلاثون: أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم - فضلًا عن عوامهم ومقلديهم -: أنتم لا تزالون في علومكم التي افتخرتم بها، لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقررونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها، ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها، وربما تجزمون ببطلانها وتحدثون ما يضادها من النظريات التي باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها، وهي عرضة للاضمحلال. وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقًّا، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها. كيف يسوغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون؟

الوجه الثاني والثلاثون: قد تقرر عند جميع الأمم - سوى هذه الطائفة التي كابرت وباهتت - صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العلية والأوصاف الرفيعة، وبما جاءوا به من الدين الحق الذي أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد إلى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التي تواترت تواترًا لم يقاربه شيء من المتواترات، حتى تناقلتها الأمم والقرون، وصارت في مقدمة الحقائق وفي أعلى مراتب الصدق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمدًا ﷺ فإن جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا - أولياؤه وأعداؤه - ولو لم يجئ إلا بهذا القرآن الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجميل الجليل وأحكامه التي هي أحسن الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق، فمن عرف شيئًا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم؛ عرف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات وباهتوا

المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية، وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للمعاندين تقليدا أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثالث والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحي من الله، جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهو مؤيد بشهادة الآيات والبراهين القاطعة، والعقول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه، وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة إلى إرشاده وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقول بنيت على الشبه والخيالات، فإنها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه، فابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه سالمة من هذيانات الملحدين وافتراء المفترين.

وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته إلى عقل ونقل سواه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق. ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلًا، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله،

أو تخبر بأمور لا تهتدي إليها العقول بمجردها لا جملة ولا تفصيلًا، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة. وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم، وقد تتبع كبار العلماء وأساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها هو ضلالات وجهالات وخيالات، حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلًا عن أولي الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المغتذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية هو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليقة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. ولما ذكر صفات أولي الألباب قال عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

الوجه الرابع والثلاثون: أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات، أعيانها وأوصافها وأفعالها، ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق، ومن سواه عبد مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على

كل شيء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعًا وقدرًا وجزاء، إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئًا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل، وأشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. فهؤلاء الملحدون لمَّا لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها؛ ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلًا وضلالًا، ومنهم من كان كذلك ظلمًا وعنادًا. فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم، والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم.

الوجه الخامس والثلاثون: أن هؤلاء الدهريين لمَّا كانوا يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما هي إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث؛ حصروا مداركهم؛ في هذه الحياة الدنيا، فأدركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل، وساءت قصودهم، وختم الله على مداركهم القلوب والأسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ﱡٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُﱠ [غافر: ٥٦]. فنعوذ بالله من هذا الكبر الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات ومنعه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: المعلومات المعاينة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر، فإنه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة. والمعلومات التي لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرة من بحر، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق. وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم النجوم والهندسة وعلم الكم المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التي لمَّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل.

وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبًا وخبرًا، فهو العلم المزكي للنفوس، المكمل للفطر، المصحح للعقول، الذي خصه الله باسم «العلم» وسمى ما عارضه «ظنًّا» لا يغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا. وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا. انتهى.

الوجه السادس والثلاثون: أن آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومعجزاتهم التي

شاهدها الخلق العظيم، وتناقلتها القرون، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة: دلالة العقل، ودلالة الحس، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه، تهدم الأصل الذي أصله الملاحدة حيث لم يثبتوا إلا ما دل عليه الحس، فإن أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبة من هذه الجهة، فضلًا عن بقية الاستدلالات عليها، فهي من أقوى الطرق وأوضحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم رحمه الله: وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله «آيات بينات»؛ فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمر به ثم يعود عصًا كما كانت، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقًا والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم، وضرب حجر مربع بعصًا فتسيل منه اثنتا عشرة عينًا تكفي أمة عظيمة، وإخراج الناقة لصالح، وتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرًا ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وإنزال العقوبات المتنوعة على المكذبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جدًا، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلهم بها، كما دلهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو، وأحوال العلويات من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النطفة وتقلبها طبقًا بعد طبق. انتهى.

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويجاري الملحدين في تحليلها تحليلًا يعلم بالضرورة بطلانه، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة

الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة، ومنقول نقلًا متواترًا لا يشبهه شيء من المتواترات، والله تعالى ينوع آياته ويجعلها في كل فن وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لا يعرفون وجهها، وإنما يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل. والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

الوجه السابع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]. فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات، وهو واجب الوجود، وغيره وجد بعد العدم. وهو تعالى فاطر السماوات والأرض، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة، وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه، أوجدها بعد العدم، أمدها بكل ما تحتاج إليه، وحفظها من الزوال والاضمحلال، وهو يحييها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات، وخضعت لعظمته جميع الكائنات، وافتقرت إليه جميع البريات في كل شئونها، كل يوم هو في شأن؛ شئون يبديها ولا يبتديها.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على هذا الأمر، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، لا يمكن أحد له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلا هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مريد، كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالإيمان: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا

ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. فاستدل عليه بجميع الكون، ناطقه وصامته، وأنه الذي انفرد بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة.

فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، ولا ينكره إلا كل مكابر مباهت، مثل فرعون وأئمة هؤلاء، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إنكارًا له ﴿قَالَ ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]. فكل عاقل لا بد أن يعترف به، ومن لم يعترف به فإنه إما مجنون أو معاند مباهت، أو ضال مقلد تقليدا أعمى، فقال فرعون، مموها على أهل مجلسه: ألا تسمعون ما يقول موسى؟ فقال موسى: ربكم ورب آبائكم الأولين، إنكارًا عليهم أنهم أنكروا أمرًا لم يزالوا ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأولين التي لا يمكن إنكارها، فهو الذي رباهم بخلقه ونعمه صغارًا وكبارًا، هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخلق، ولكنهم باهتوا. ومن مباهتتهم ومكابرتهم رميه لموسى بالجنون، وهو يعلم أنه أكمل الناس عقلًا، وهو الذي أقامه وأقعده وأحرجه في أحواله كلها، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]. فلما رآه يكابر ويجحد ربوبية الله للخلق التي لا يمكن المكابرة فيها قال له: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَىۡءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٣٠]. ظاهر واضح قوي دال على صدقي وصحة ما جئت به، وإن الجاحدين هم المبطلون، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة كلهم أنه من عند الله وأثر فيهم وآمنوا الإيمان الصحيح الصادر عن قوة وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون. فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرسل. ولقد قص الله علينا من نبئهم ما فيه عبرة للمعتبرين وحجة على المعاندين، وكم في الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك، فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأي حقيقة يعترف؟ ومن أنكره فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ﴿ وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرًا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

الوجه الثامن والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الماديين: هاتوا برهانكم وميزانكم الذي تزعمون أنه ميزان الحقائق، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين. زنوا الحقائق مفصلة حقيقة حقيقة، واعرضوها على ذوي العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فإنه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين.

أول ذلك أن يقال: قابلوا بين أي موجود من الموجودات التي اختصصتم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها وبين وجود الخالق، فإن وجود الخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه وجود واجب، مستحيل وممتنع ثبوت نقيضه، فهو أعظم الموجودات وأظهرها، بل لا وجود لشيء من الأشياء إلا بإيجاده، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه، ليس لشيء منها من نفسه وجود، فليس لها إلا العدم، فهي حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود، لو قطع عنها الأمور التي حفظها بها وأبقاها لاضمحلت، والله تعالى وجوده مركوز في العقول والفطر، معلوم بالضرورة وبالطرق التي هي أقوى الطرق الدالة على الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. فحصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا حق لشيء من الأشياء إلا باستناده إليه، فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود.

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحِدُ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]. عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها، ولكن العلة والسبب الذي حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٧٠]. فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله، وبجميع الرسل، منعهم من قبول الحق الذي لا حق غيره وتركهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذكر وعيده لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١]. زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم

العظيم من الوحدانية في أوصاف الكمال، والتفرد بكل جلال وجمال، والتفضل بكل خير ونعم جزال، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حسب العقول والأفهام، إذ تهتدي إلى ما بثه في المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تحصى المترتبة على ذلك، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التي وسعت كل شيء، فما من مخلوق يستغني عن رحمة خالقه طرفة عين، فما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خفية أو جلية إلا من الله، وهو الذي لا يأتي بالخير والحسنات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره.

وانظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة، وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذي لا غاية له. وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة، فهل يستوي من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل؟ وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، والقيام بحمده وذكره وشكره والإنابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب، أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها؟

وهل يستوي ما أمرت به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك؟ وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟ وهل

تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به؟ وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة، والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟ وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه؛ من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد - عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والباطن، مع ما دعت إليه الرسل، وأن الملحدين ترمي دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل، ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه.

ومن أعجب العجائب أن كثيرًا من الكتاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي

جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلها ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وازدادت المشكلات التي يريدون حلها مشكلات أخرى تعذر حلها كما هو المأمول، فكل مشكلات الحياة إذا لم تبن على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقدًا وعظم ضررها وبعد خيرها، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح، ووجهوا النشء إلى عقيدته والتخلق بأخلاقه؛ لأثمرت مساعيهم كل زوج كريم، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشر والأضرار والأعمال القباح، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجامعه.

الوجه التاسع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين: من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها؟ فسيجيبون: أن هذا كله أثر المصادفة، وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف. وهذا قولهم الذي صرحوا به واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين، فحينئذ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون؛ فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة، بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية، لزالت السماوات والأرض واختبطت العوالم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا؛ احتمالات في غاية الضعف والوهى.

فيا عجبًا لمن اغتر باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فأبطلوها وأنكروها، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية؛ فإنها لا تغني من الحق شيئًا ولا تدل على

فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. والله تعالى جعل للعقول حدًّا لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جدًّا في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتان وجرم عظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية؟

الوجه الأربعون: أن يقال: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدينه، فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثًا ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها، حتى يظن الظانون، بل يظن كثير من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها، فيقعون في الجحود والإنكار الصريح، ويصيرون في خبط وخلط من جهة العقيدة الصحيحة: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. فإهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضل خلقًا كثيرًا، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها، والموجودات على موجدها، والنعم على مسديها والمتفضل بها؛ لهدوا إلى صراط مستقيم، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم.

الوجه الحادي والأربعون: أن الله أيد رسوله محمدًا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله؛ أحدهما شهادة الله له، والثانية هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذي أنزله في كل كتاب وعلى لسان كل رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كله، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصلاح المطلق في جميع الأمور، فما بقي خير إلا أمر به ولا شر إلا نهى عنه وحذر، ولا طيب إلا أحله، ولا خبيث إلا حرمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقًا في الكمل من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لا يمتري فيها إلا جاهل أو مكابر.

وأما شهادة هذا القرآن فإن الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به في هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الديني والدنيوي، وما حذر عنه من الشر والأضرار والعقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان، وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن التي لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع، وكل خير لا شر فيه فإنه من أحكامه ومما دل عليه، فليأت المنكر بمثال واحد صحيح خارج عن هذا الأصل.

فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق

ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينًا أن ما خالفه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة، شاهدة بصدقه وصدق رسله، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله.

الوجه الثاني والأربعون: النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقي أحوال الحياة والتطورات المتنوعة، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة. فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نعم ومسار ومحن ومضار، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النعم من كل وجه، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر، مع السعي في دفعها قبل نزولها، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل.

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم؛ لها يعملون ولها يطلبون، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها، فإنهم يتلقون التطورات المختلفة كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونهم كنهم الأنعام أو أعظم؛ لا يشكرون على النعماء، بل يكفرون ويبطرون ويطغون، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]. فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خير وسعادة وفلاح، وآثار الجحود شر وضر وعواقب وخيمة.

الوجه الثالث والأربعون: يقول الملحدون: الترقي شامل لكل شيء. وقصدهم بذلك إبطال الأديان، وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق ما زالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود، وهذا تكذبه الأديان كلها، والواقع يشهد بكذبه، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقي المشاهد الآن إنما هو منحصر في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية، وأما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس، فإن المادة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقت ترقيًا عظيمًا وخصوصًا في هذا القرن، وأما الأديان والأخلاق فإنها في هذا الوقت هبطت هبوطًا عظيمًا. ولهذا لما كان النوع الأول خاليا من الدين والإيمان صار هذا الترقي الدنيوي الصناعي ضرره كبيرًا من وجهين:

أحدهما: أنه صار سببًا لاغترار كثير من الخلق، وظنوا بجهلهم أن الترقي الدنيوي دليل على أن أهله أولى بكل خير من غيرهم. وجهلوا بل ضلوا ضلالًا مبينًا، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات - حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته - صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التي لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر، وهذا أمر حتم لا بد منه، وجريان الأحوال يدل عليه، فالخير كله في الدين الصحيح، والشر كله في الإنكار والجحود. والله أعلم. يؤيد هذا ويوضحه توضيحًا بينًا واقعًا:

الوجه الرابع والأربعون: وهو أن الماديين - رؤساءهم وعلماءهم - لا زالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حل مشكلات الحياة وقد عجزوا عنها كل العجز، فكلما حلوا مشكلة نتج عنها مشكلات، وكلما وجهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب. أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو الطريق الوحيد الذي

تنحل به جميع مشكلات الحياة، واحدة بعد الأخرى، وتزول به الشرور والأضرار، وتحصل به الخيرات.

ولنذكر نموذجًا من المشكلات التي اضطرب فيها الخلق اضطرابًا عظيمًا ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين. فمن أعظمها مشكلة العلم، فإنه إذا صح صحت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه، وقد كانت شريعة الإسلام تحض على العلم وترغب فيه، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم، ومع حضها وترغيبها في العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بين الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلًا بعدما أصلتها تأصيلًا، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهدت إليها وأرشدت لها العباد، فما من علم نافع إلا بينته. وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فجمع في هاتين الآيتين بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف. وأما الماديون فهم يخصون بالعلم؛ علوم الدنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التي لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم وبقوا في أمر مريج متناقضين، متضاربة آراؤهم غير مستقرة أفكارهم، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطغتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين.

ومن المشكلات: مشكلة الغنى والفقر، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلًّا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة، وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة في أسباب الرزق، المناسبة

لكل زمان ومكان وشخص، فقد أمر بالاستعانة بالله في تحصيلها، وأن تجتنب الطرق غير المشروعة، وأن نقوم بواجبات الغنى المتنوعة، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقي ذلك بالتسليم وعدم التسخط، مع السعي في طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال، ونهى عن البطالة والكسل الذي يضر في الدين والدنيا، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظلم الخلق في دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق، كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم.

ومن ذلك مشكلات السياسات الكبار والصغار أمر بحلها، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضحت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته، والمشاورة في الأمور المشكلة والمشتبهة في كل قليل وكثير، وهذه أصول لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب.

ومن ذلك مشكلات الحقوق والمعاملات، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها: الحقوق الراتبة والحقوق العارضة، وهي في أكمل ما يكون من الحسن، وبها يندفع الضرر والشر والخصام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلَّا إذا بنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها، وصلحت من جميع الوجوه، لا فرق بين مكافأة المحسنين في الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك. والله أعلم.

الوجه الخامس والأربعون: أن هؤلاء الملحدين روجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها، فزعموها تجديدًا ورقيًا وتقدمًا إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغتر بها الجاهلون. وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقي روحي ومادي فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر

بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع، عاجلًا وآجلًا، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدر مفتر.

فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل في موضع آخر، فمحاسن الدين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورًا من الشمس المشرقة، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها الباطل المبهرج: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونصرته الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف. وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغِّب فيه وما يحذر عنه، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد، تجد أقوالهم تضمحل وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة، فإن الضد يعرف بضده، فلولا الليل ما عرف النهار، ولولا الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها، وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يشبه بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وتجد الباطل يبطل بعضه بعضًا وأهله في غاية التناقض، بل تجد الواحد منهم متناقضًا متهافتة أقواله.

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فالحق مسائله هي الصادقة النافعة، وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأما ضده فإن مسائله باطلة وضلال، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر

الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يحصلها القارئ بسهولة، وإذا وصل إليه وجده: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]. ظلمة الضلال، والجهل المركب والبسيط، وظلمة الكبر والغرور.

الوجه السادس والأربعون: أن يقال: إنه ممتنع كل الامتناع، ومستحيل أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذي يتوقف عليه صلاح البشر، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذب للأفكار وحاثّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل، فروح ما دعا إليه الدين الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله وبما له من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسنها وسيئها التي لا تعرف إلا من جهة الرسل، فعلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح الحقيقي بغير الإيمان الصحيح والدين الإسلامي، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعلمه الناس أضعافًا مضاعفة فإنها لا تبلغ قريبًا من علوم الأنبياء، ولا تصل إلى ما وصلت إليه، ولا تذعن لها النفوس، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإن النفوس لا تذعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية.

الوجه السابع والأربعون: القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله، وصدق رسله، بأنواع إعجازه، ببلاغته وأسلوبه وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتفاقه وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر،

وأنه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أصوله، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتابًا ولا يخطه بيمينه ولا تعلَّم من أحد، بل زكى به العباد، وكمل به الفضائل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وهذه المجملات تحتاج إلى تفصيل كثير، فمن نظر إلى هذا جزم جزمًا لا يمترى فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلابًا عظيمًا لم يعهد له مثيل، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح، فهو الدليل والبرهان، وهو الحجة على توالي الزمان ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فالقرآن زلزل بتأثيره عقائد الجاحدين وأقضَّ مضاجعهم، وبدل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعها، وأخلاق هي أحسن الأخلاق وأحمدها، وأعمال هي أكمل الأعمال.

الوجه الثامن والأربعون: من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أعطي من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق، وما أيد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعد ولا تحصى، كل جنس من آياته، بل كل نوع، بل كل فرد منها؛ يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقًا وأن ما جاء به حق وما خالفه باطل، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شرعه وفيما أيد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسله ودينه، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين، وتفصيل هذا الوجه يستدعي مجلدات، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيمانًا وقامت الحجة على المعاندين المنكرين، وقد قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولكن هؤلاء الماديين

يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمسون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليدخلوها في علمهم القاصر وينكروا بذلك قدرة الله، خصوصًا في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلًا وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. فصارت علومهم ضررًا عليهم، وخطرًا عظيمًا على جميع البشر؛ ضررًا عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزءوا بما جاءت به الرسل، وصارت خطرًا على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير؛ تدمير النفوس وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه.

الوجه التاسع والأربعون: أن يقال لهؤلاء الملحدين القادحين في الدين: قد علم أولو الألباب والنهى وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام، الذي جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملًا متممًا معممًا هو دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة وأخبار صحيحة، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين، واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة يعلم به علمًا يقينيًا لا شك فيه أنه الحق، وما ناقضه فهو الباطل، فهذه الأوصاف التي وصف بها الدين وحققتها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء إلى الجزم بأخباره، والتحقق بأخلاقه وآدابه، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الوجه الخمسون: أن الإصلاح العلمي الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملًا - من أكبر الأدلة على وحدانية الله، وأنه الحق، وقوله حق، ورسله حق، ودينه هو الحق، فإن البشر - الأمم السابقين واللاحقين - لم يشهدوا لهذا الإصلاح نظيرًا ولا مقاربًا بوجه من الوجوه، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد

لهذا الأمر. وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحل معه جميع أصول الملحدين، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين. وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التي تفاقم شرها وتعذر حسمها وعظمت فجائعها وقلت رحمتها وعدلها، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم؛ لأنها بنيت على الكفر والإلحاد، والجحد لدين رب العباد، فصارت ملازمة للشرور والفساد.

الوجه الحادي والخمسون: قال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]. فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها، وأن الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين:

قسم سد على نفسه باب الإيمان بالآخرة فانسدت حوله أبواب الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذي وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهرًا وباطنًا فهم ملحدون متمردون، وصفهم الإنكار والاستكبار، ومن كان على هذا الوصف فإنه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد.

وأما القسم الثاني: فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سدى مهملين، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم، فهؤلاء قلوبهم معترفة بالله مؤمنة بوحدانيته؛ وحدانية الذات ووحدانية الصفات، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهرًا وباطنًا، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ، والمحسوس من الكمال العلمي والعملي والرشاد والإرشاد، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين في أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]. ففي هذا الجانب الرسل العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه. وفي الجانب الأخير: كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله في وصفهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] فمن لم يؤمن بالله وبآياته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٦ - ٩] جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها، وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم أذهان وذكاء وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

الوجه الثاني والخمسون: ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وليقل: آمنت بالله»[1].

وهذا مصداقه ما وقع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظريات متنوعة كلها خاطئة، لأن مبناها على الخرص والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، بل على خلاف المعلوم شرعًا وعقلًا وفطرة فيتكلمون في علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجرئين أنه علة

(١) البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

العلل، فقطع النبي ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهي إلى موجد واحد أحد، فرد صمد، الأول الذي ليس قبله شيء، الموجد لكل شيء، وأمر بالتعوذ من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثيل ولا نديد ولا مشارك في شيء من كماله. وبما أرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون، وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم في غيهم يعمهون.

الوجه الثالث والخمسون: أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويقدر على كل شيء، ووصفوه بأوصاف الرب، وهذا أمر لم يصل إليه أحد من بني آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهتة المشاهدات، فإن كل أحد يعلم حق العلم أن الإنسان ناقص من كل وجه، وأن ما به من علم وقدرة فبتعليم الله وإقداره، وأن الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حدًّا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه، لأنه في طور البشر. فكما أن الله هو الذي خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا فهو الذي أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية. وأما القدرة الربانية والعلم الإلهي فمن زعم أن أحدًا من الخلق يشارك الله في شيء منها فهو مبرسم[1] مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم، وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم، وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون، والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فبإقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه.

---

(١) مرض معروف وورم في الدماغ يتغير منه عقل الإنسان ويهذي.

ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فإنها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقال موسى للخضر حين رأى عصفورًا نقر بمنقاره من البحر: ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور. وفي الصحيح مرفوعًا أن الله يقول: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»[1] فتبًّا لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجراءتهم، والله تعالى للطاغين بالمرصاد.

الوجه الرابع والخمسون: أن يقال لهؤلاء الملحدين ما قاله الله لإخوانهم المكذبين، الذين هم دونهم بدرجات مبطلًا كل احتمال يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٩، ٣٠] إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر أو كاهن أو متقول أو ساحر أو ما أشبه ذلك، مما تضاربت به أقوالهم؟ أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم، وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر وهذا هو الواقع؟ أم الذي أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم؟ فبئست الأحلام والعقول التي تجحد أكبر الأشياء وأوضحها، وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار.

فعقول وأحلام هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر، أم الذي حملهم على هذا التكذيب لا حد له ولا يتورع صاحبه عن محرم ولا يمتنع عن جريمة، والطغيان مرد

(١) مسلم (٢٥٧٧).

لأصحابه مهلك لهم لا محالة أم يقولون: إنه ﷺ تقول هذا القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤] وهذا التحدي قائم من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكر له مكذب له أن يأتي بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية.

أم الذي حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة؟ فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل، أم خلقوا السماوات والأرض وما فيها من العوالم التي لا يعلمها إلا الله؟ فإنهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أم عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة؟ كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراء مماليك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ولا دفعًا للمكاره ولا جلبًا للمصالح. أم الذي حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التي يعرف كل عاقل بطلانها؟ وهذا هو الواقع، وأن الذي ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك لو جاءته كل آية لم يؤمن ولم يهتد، لأنه وطن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق، أم الذي حملهم على ذلك أن لهم إلهًا غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله؟ فسبحان الذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون، فهو الإله الحق المبين الذي له جميع أوصاف الكمال، وبيده التدبير للعالم العلوي والسفلي الذي لا يستحق العبادة إلا هو، والذي لا يأتي بالحسنات والخيرات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، الذي ليس له ند ولا كفؤ بوجه من الوجوه، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة. وهذه الاحتمالات التي ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم، فلا دين

ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التي قالوها، فلم يبق إلا أن يعذبهم الله، قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

الوجه الخامس والخمسون: أن يقال لهم: من الذي خلق الأرض والسماوات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بث فيهما من دابة، والذي أنزل من السماء رزقا فأنبت به من كل زوج كريم متاعًا للعباد ولأنعامهم، ومن الذي أحكمها غاية الإحكام، وأودع فيها من بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته، ومن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكمل ظاهره وباطنه بالقوى المتعددة التي يحتاج إليها، وعلمه كيف يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، فعلمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي حتى تم له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها؟ فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذي لم يبلغه ضلال أحد، فأي عمل للطبيعة التي توجب هذه الآثار العظيمة؟ وأي أثر جعلها تعمل هذه الأعمال؟ وأي عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب، بل وجميع من له نوع من العقل، فسيقولون: هذا تقدير العزيز العليم، وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه، بديع السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

الوجه السادس والخمسون: قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين، وهم الرسل وأتباعهم، وعقابه للعاصين المكذبين له ولرسله، آيات بينات وبراهين قاطعات، شاهدوها رأي عين، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها القرون قرنًا بعد قرن وتواترت تواترًا لم يتواتر له نظير من كل وجه، فمن الذي أرسل الطوفان العظيم الذي غشي الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون؟ ومن الذي أرسل على عاد الريح العقيم

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾؟ [الذاريات: ٤٢]. ونجى الله من هذا العذاب هودًا ومن معه من المؤمنين؟ ومن الذي أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى الله صالحًا ومن تبعه من المؤمنين؟ ومن الذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقلب على قوم لوط ديارهم، وأهلك قوم شعيب بعذاب الظلة؟ ومن الذي فلق البحر حتى صار اثني عشر طريقًا وعبره موسى وقومه ناجين، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين؟ ومن أيد موسى بالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم، وفجر له الحجر اثنتي عشرة عينًا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠]. وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين؟ ومن الذي أعطى عيسى آيات بينات مشاهدات جعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؟ ومن الذي أيد محمدًا ﷺ بالآيات البينات والنصر العظيم، وشق له القمر، وسلم عليه الشجر والحجر، وكم أجاب الله دعوته في إنزال الغيث وإمساكه، وفي شفاء الأمراض المتنوعة، وأنبع الماء من بين أصابعه فروى الخلق الكثير، وبارك في الطعام الذي باشره حتى أشبع الخلق الكثير، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب، وحفظه وحفظ ما جاء به؟ فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان. وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقريره وبيان أدلته الواهية وشبهه الساقطة، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات. فإذا علم الحق علم أن ما سواه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى يصرف الملحدون، وإلى أي شيء يذهبون؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضي إلى العذاب الأليم.

الوجه السابع والخمسون: أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له، ويروجها المأجورون من الزنادقة المتنسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنهم متأخرون في أمور الحياة، والذي أخرهم دينهم. فيروجون هذا من وجوه متنوعة، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الإسلامي في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم، وما فيه من

الهدايات إلى كل خير والذود عن كل شر وضرر. وتنظر أيضًا إلى حالة القائمين به المنفذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول، فإنك ترى فيه ما يبهج الناظرين، وتقوم به الحجة على المعاندين. وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوه كثيرة، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه، فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادعاها من لم يتصف بها ولا يحتج بحالهم على ذم العلم، فهذا أبلغ وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم وعودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]. فحال المسلمين اليوم في تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم حتى انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين، وحجابًا حائلًا وشبهة لمن يريد التلبيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الوجه الثامن والخمسون: قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وهذا أمر مشاهد محسوس: أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرصات ونظريات فاسدة. واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لا يزالون يحدثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجربات في علة العلل فيبطلونها،لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيء، وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقي لكل موجود عمومًا وللإنسان خصوصًا في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخذها المغترون عنهم قضية مسلمة، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير، بل يعلم

بالبداهة والضرورة أن الترقي إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغتروا وغروا غيرهم.

أما الترقي في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فإنها هبطت هبوطًا لا يمكن التعبير عنه، وإذا أردت أن تعرف ذلك يقينًا فخذ نموذجًا من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة. مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها وضيقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل. وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له، وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحًا دائمًا. ومع ذلك فقد سخر لهم ما في السماوات والأرض، وأدر عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خلقوا له فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا في هذه الدار حياة طيبة، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية؟ وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة، فالماديون قصروها على علوم المادة فتم لهم منها ما تم، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه، ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الأخر. ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودنياهم، فإن دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالًا ذائبًا حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخس، مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحت كل محرم، وانطلقوا في شهوات الغي لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياء من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة،

خسروا الدنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإن أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلًا وشرعًا وعرفًا، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد.

الوجه التاسع والخمسون: أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكامًا جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها؛ لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير، وتذودهم عن الشرور، أما باطنها فلأن المتصفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين، واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات، راجين بذلك فضل الله وثوابه، محتسبين خيره، ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء. وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم. وأما القوانين الملحدة فإن غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم، إباحيين فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وتفضي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل. ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التي أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر، صالحة لكل زمان ومكان، بل لا تصلح الأمور إلا بها، وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تبن على الدين فإنها موقتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارهم في الوقت الذي هم فيه، ثم تتغير وتتبدل وربما غيّرها واضعوها؛ لأنها من صنيع البشر، وصنعهم كله ناقص، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا، وعلم مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فشرعها صالحة لهم موافقة لمصالحهم دافعة لمضارهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين، والله أعلم.

واعلم أنه لا يوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو في الدين على أكمل ما يكون

وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص، فليأت المرتاب بمثال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقًا.

الوجه الستون: قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١]. فذكر - جل جلاله - أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابر، فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آيات الله التي تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه، فمن عرف القرآن وتأمله، ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصدق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحسن ما شرعه وحكم به عرف أنه من عند الله، وأن البشر، بل الإنس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكذلك من عرف الرسول محمدًا ﷺ وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل في روحه وخلقه، الكامل في عقله ومعرفته، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه، من عرفه على هذ الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقًّا ونبيه صدقًا، وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته، بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم. وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. فتعجب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد - وكل أحد له عقل يشاهد - أنه الخالق للموجودات عمومًا وللآدمي خصوصًا الموجد له بعد العدم، المتصرف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكفر والإنكار؟ ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الغني بذاته، والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه.

الوجه الحادي والستون: أن هؤلاء الملاحدة الماديين فسدت عقولهم، مداركها وأعمالها

وسلوكها، وذلك أن صحة العقل أن يدرك الحق، وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق، فإن الله هو الحق، وقوله حق ودينه حق ووعده ووعيده حق، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التي هي أقوى البراهين وأصدقها، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وشهد به جميع العقلاء، وعليه فطرت الخليقة. فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التي هي ثمرة العقل، وإما مشتبه عليه الأمر، فهذا أعظم الناس على الإطلاق جهلًا وضلالًا؛ لأنه ضل بأوضح الأشياء واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علوًّا في الأرض وفسادًا، أو جامع بين الوصفين. وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. اهـ.

الوجه الثاني والستون: أن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تصور على حقيقته جزم العاقل ببطلانه وقال: كيف اشتبه هذا على أحد؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه. قال شيخ الإسلام: ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس. ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]. فهم لا يفقهون ولا يعقلون، وأنهم: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وأنهم في ريبهم يترددون ويعمهون. انتهى كلامه. فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شيء من الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشده مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء من جاءه الحق فرده، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الوجه الثالث والستون: أنه قد تقرر في الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع. وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وهذا متقرر مستقر في قلوب جميع أهل الأديان، وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله، وأنه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وأفعاله، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات ; فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت دياناتهم وتنازعوا في الأصول أو في الفروع، فهذا الأصل لا ينكره منهم منكر، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة، وإن كان لهم عقول وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة؛ حيث وجهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها، ولكنهم لم تغن عنهم هذه العقول شيئًا في أنفع الأشياء، بل كانت حجة عليهم، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلي، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه، فانقطعوا في الوسائل عن المقاصد، وبالدليل عن المدلول، وبالكون عن المكون، وبالصنعة عن صانعها، وبقوا في غيهم وضلالهم وطغيانهم يعمهون.

والله تعالى له المثل الأعلى، وهو معطي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات، وهو أحق بالكمال من كل موجود، فالذي علم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة، وأقدره على كثير من مواد الطبيعة وعناصرها، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره، أفبهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون، ويجحده الجاحدون. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

الوجه الرابع والستون: أن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود؛ لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة:

منها: أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة.

ومنها: أن الله تعالى، كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات، فهو الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه.

ومنها: أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه، فهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتي بالإيجاد والإمداد إلا هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

ومنها: أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب، ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الإخلاص لله ثبتت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين.

الوجه الخامس والستون: أن البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عمومًا ومحمد خصوصًا - لا تعد ولا تحصى، متنوعة من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر. والله أعلم.

الوجه السادس والستون: البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين، وقد استدل تعالى على البعث بقوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]. وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فإنه سيعيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدل بكمال قدرته، واستدل بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وبغير ذلك من البراهين، وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول

لو بسطت براهينه لبلغت شيئًا كثيرًا، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله.

الوجه السابع والستون: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمد ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر - الأولين والآخرين - وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخص واحد، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع؟ ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده - أو وجود ما يقاربه - في شخص واحد نفذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وآيات لأولي الألباب، حيث بعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتابًا ولا يخط بيمينه ولا جالس أحدًا من العلماء السابقين فتعلم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين، فزالت به الجهالات والضلالات، وتقشعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى، شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلا كل مباهت مكابر. ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

الوجه الثامن والستون: لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين

الإسلامي أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حملات متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيرًا، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام، وقالوا: إنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه. ولكن - ولله الحمد - قد علم أهل البصائر مقاصدهم وعرفوا الخونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء. فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين: إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل ونبذ ما جاءوا به، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم، قد غرته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء، وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملًا على كل خير، هاديًا إلى كل رشد وصلاح، حاثًا على كل فلاح؟

الوجه التاسع والستون: من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقًا فقط، وإنما هو - مع ذلك - موجه وحاكم وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي - بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة، كما هو مشروح مفصل - من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يبق خيرًا إلا دل عليه وحث عليه، ولا شرًّا إلا حذر منه، ولا حقًّا إلا أقامه، ولا عدلًا إلا جعل له مسالك وطرقًا يقوم عليها. فهو دين ودولة، وجامع بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله، عكس ما نبذه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء، والله أعلم.

الوجه السبعون: أن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع معه الإلحاد جهلًا وضلالًا، فإن الدين - بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين - يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك، فلا تجد ملحدًا إلا معرضًا من أعظم الجاهلين أو معاندًا عارفًا من أكبر المباهتين المكابرين.

ومن المصائب الكبيرة أن كثيرًا من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتملة على الخير والشر، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادي، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة، وليس لهؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه، فنسأل

الله السلامة والعافية، ولا يعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه، فإن هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر، وقد صار هذا المسلك طريقًا لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجاب للمغترين وأعظم حجة للمعاندين العارفين.

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلي، وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد، فإن هذا هو الدين، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الإنصاف. أما من يريد الاعتساف، وقصده معروف، فإنه يزور على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات، وينسب إلى الدين ما هو منه بريء، وإذا كانت فنون العلم - كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها - لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها، فكيف بهذا الدين الذي تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة؟ فتبًّا لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه، سبحانه هذا بهتان عظيم.

الوجه الحادي والسبعون: أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها، فهذا الأصل الذي بنوا عليه كل شيء أصل منهار متهافت في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة، بل كل شخص منهم، يدعي أن الصواب معه والخطأ مع غيره، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب السماوية، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية

المحضة، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق، وخيف أن يقع - ولابد من وقوعه - ما أخبر به النبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»** (1) وصرنا في وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة، فانحرفوا بهذا انحرافًا عظيمًا وضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سبيل الله، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التي خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له، لكان خيرًا لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل، ولنالوا السعادتين، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٥ - ٤٧]. ولهذا نسأل الله العافية، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوي والأخروي ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم في الحقيقة أعلى الناس علوما وأخلاقا وأعمالا ومقامات، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما متع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد، ويتلون عند ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

(1) مسلم (١٤٨).

الوجه الثاني والسبعون: إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجًا من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها في فساد من عقولهم، وانعكاس من آرائهم، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعًا وعقلًا وفطرة. ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي - الذي هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل - يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وتفرده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهرًا وباطنا، والتوجه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النوائب والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعائه، والتعلق به وحده في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين، فهل هذا خير أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاء كما هو حال الملحدين؟

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلى البر والنصح للخلق كلهم. والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للإنسان بهم تعلق وصلة، ومن لهم حق عليه، ويأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفيها حقها ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفًا من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله، وإنما

هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعًا يجدي.

وبالجملة، الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبارات الوسخة التي هي أكبر معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم في كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

الوجه الثالث والسبعون: ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يبطل الإلحاد معرفة دين الإسلام والعمل به، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل معه كل باطل من كل وجه، خصوصًا أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاة للعقل والدين وهو الإلحاد، وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن المتعلمين، وأبعدوه عن المدارس، فإن لم يتمكنوا جعلوا التعليم في الدين ضعيفًا أو اسمًا بلا مسمى، فهم عند التمكن ينحون الدين جملة ويدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد فيخرج المتعلمون ملحدين صرفًا، فإن لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حب الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده، فإن البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجهت، انهارت الأديان

والأخلاق كما هو مشاهد معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا. فيتعين على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء بعلوم الدين وأخلاقه، فإن هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر، فإن الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين وصار عندهم بصيرة صحيحة فيه فإنهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم، وإلا فليعلموا أنهم رعاة، وكل راع مسئول عن رعيته، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين في المدارس فإذا لم يثقفوهم ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم، فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم؟ فإنه ما شاع الإلحاد في البلاد الإسلامية إلا بهذه الطريقة، فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطردوا عنها الدين أو أضعفوه؟ فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم الذي خطره كبير وشره مستطير، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا، والله المستعان.

الوجه الرابع والسبعون: قال شيخ الإسلام رحمه الله: الرب تعالى أعرف من أن ينكر، وأعظم من أن يجحد، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟. وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، فإن افتقار كل ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت لما سواه، فكل ما سواه - سواء سمي محدثًا أو ممكنًا أو مخلوقًا أو غير ذلك - هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم ذاتها، وهي لا حقيقة لها إلا إذا كانت موجودة، فإن المعدوم ليس بشيء، فكل ما هو موجود سوى الله فإنه مفتقر إليه دائمًا حال حدوثه وحال بقائه وهذا يوجب افتقاره إليه دائمًا. انتهى.

فعلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه القائم بكل موجود، أو إنكار وحدانيته أو حق من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها، وأن هذا

المخلوق الفقير من وجه قد تعدى حده وطوره، قال الشيخ: وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم - وهم أمم لا يحصي عددهم إلا الله - قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه، وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أي تواتر قدر، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك، علم أنه هو الحق الذي لا ريب فيه وما سواه باطل. انتهى.

الوجه الخامس والسبعون: قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم: إن العقل يجب تقديمه على السمع، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة. انتهى.

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطرارًا لا محيد لهم عنه أن محمدًا رسول الله حقًا، فلو قدمنا شيئًا مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد، لئلا يلزم تناقض قضايا العقل، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل، كما أنهم معاندون للشرع، وإذا تقرر أن العقل دل دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول في كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيء يقضي على جميع الجزئيات، ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الإشكال من المشتبهات، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات، وهو الأصل العظيم المحكم الذي تواردت عليه جميع البراهين اليقينية، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به. والله أعلم.

قال الشيخ: وإذا كان الأمر كذلك فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع

إلى من هو أعلم به منه، وألا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص - مع ما في ذلك من الكلفة والألم - لظنه أن هذا أعلم بهذا مني وأني إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لي، مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سببًا في هلاكه، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل صادقون مصدقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب في معارضة له قط؟ انتهى.

وقال أيضًا: والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولًا صريحًا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورًا لا ارتياب فيه، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى، وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو

جهل بسيط أو جهل مركب؛ فالأول: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]. والثاني: ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ [النور: ٤٠]. وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور؛ وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله من الخبر والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزمًا قاطعًا أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي لا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة، وشبه من جنس شبه السوفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح، كان هذا العقل شاهدًا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعًا شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع. انتهى.

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة: ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين، فيكفي في ذلك إخبار الرسل عن خلق السماوات والأرض وحدوث هذا العالم، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقيها منهم، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدًا في الآخرة ومن كذبهم كان شقيًا في الآخرة، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيًا، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدًا في الآخرة وإن لم يعلم شيئًا من ذلك. ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة، وكان الشرك مستحوذًا عليهم، وكان منتهى عقلهم أمورًا عقلية كلية، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو

عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علم بموجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له، فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا ينجي النفوس من عذاب الله فضلًا عن أن يوجب لها السعادة.

الوجه السادس والسبعون: قال شيخ الإسلام: من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانًا مطلقًا جازمًا عامًّا بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع. وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]. والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخًا له أو مفسرًا له كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه. انتهى.

الوجه السابع والسبعون: جميع الأمم - أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين - متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الخالق لكل شيء، الرازق المدبر لكل شيء، وأئمتهم في هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين، أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية، الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم، متفقون على علم وبصيرة ويقين، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها.

وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وسلك سبيلهم زنادقة الماديين، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلهم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطرة، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول في العلل غير متفقة، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فرحون، ولإخوانهم من الزنادقة معارضون، فدعهم في طغيانهم يعمهون، وفي اضطرابهم وتخالفهم يترددون، وفي غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم في هذا الأمر من المضحكات يمرحون، واحمد الله الذي عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى، وقل معترفًا بنعمة الله متبجحًا بفضل الله: آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثامن والسبعون: أن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدح في شيء منها، والأمثال أقيسة عقلية تنبه العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والكتاب والسنة يدل بالأخبار تارة ويدل بالبينة تارة

والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسنة مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه. فكل ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين. انتهى.

وقال أيضًا: معلوم بالسمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به: كالاستواء إلى السماء وعلى العرش والقبض والطي والإتيان والمجيء والنزول، ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة، فإن الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية والفعل المتعدي مستلزم للفعل اللازم، فإن الفعل لا بد له من فاعل، سواء كان متعديًا إلى مفعول أو لم يكن. والفاعل لا بد له من فعل سواء كان فعله مقتصرًا عليه أو متعديًا إلى غيره، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل، وهذا معلوم سمعًا وعقلًا، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفًا بأنه يتكلم بما شاء فعال لما يشاء. انتهى.

الوجه التاسع والسبعون: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فأخبر أنه يقول الحق وهو الصدق فيما أخبر به، والعدل فيما حكم به، وأنه يهدي السبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق، ويري العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وما أخبر به من الحق، ودل عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على ألسنة رسله، وما أجاب به كل مبطل أورد الشبه على الحق - الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته، فهو ظاهر واضح للعباد، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها. بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال فالله يقول الحق: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأما على وجه التفصيل فما يأتي المبطلون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله. وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألة مسألة فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية، وتحدوا أهل الباطل تحديًا صحيحًا أنهم لا يأتون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية. والله أعلم.

الوجه الثمانون: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وهذا برهان عقلي قاطع صوره الله لعقول العقلاء، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته وتوحده وتفرده بالتدبير، فإنه لو فرض معه إله آخر فإما أن يعارضه ويقاومه، وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب، أو يمتنع مراد كل منهما وهو محال؛ لأنه يدل على عجز كل منهما، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال؛ لأنه يقتضي عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع؛ فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار، فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها، وهي مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يتصور أبلغ من هذا الضلال؟

الوجه الحادي والثمانون: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. فهاتان الآيتان العظيمتان، اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعة، توصل إلى كمال العلم واليقين، وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير

الحكيمة، وتفكر في آيات الله القرآنية التي فصلها الله أحسن تفصيل، وأحكم فيها الأحكام وأصل الأصول المحكمة، وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة، ودعوة إلى كل خير وصلاح، وسببًا إلى كل رشد وهدى وفلاح - علم علمًا لا يمترى فيه أن الذي دبر المخلوقات وفصل الآيات هو الرب العظيم، الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال، وأن رسله صادقون مصدقون، وأن أعداء الرسل في مكابرة ومباهتات وعناد، وفي غي وجهل وضلال.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. على أحسن خلق خلق وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته؟ فتبارك الله رب العالمين، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى قوله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٥]. كما أخبر أن في إنزال القرآن يتلى عليهم كفاية تامة عن جميع البراهين، كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الوجه الثاني والثمانون: نذكر كلامًا جامعًا مفصلًا يعترف به كل من له معقول صحيح في القول في المعقولات، قاله شيخ الإسلام، به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوى باطلة.

قال رحمه الله: المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين، فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذم الله من خالفها بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وأما ما يسميه بعض الناس «معقولات» ويخالفه فيه كثير من العقلاء فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلوم بفطرة الله، فإذا جاء في الحس أو في الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك علم أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقًا فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون، لا يقولون على الله إلا الحق. ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح، فما علم يقينًا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقينًا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه. انتهى.

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكياء العقول المنصفين، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل، وقد تكفل بهذا التحدي على وجه التفصيل هذا الشيخ الإمام في كتابه العقل والنقل وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل، وبين أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن، فإنه تمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا، ومن أصدق من الله قيلًا، وأحسن منه حديثًا؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون، الذي أحسن كل شيء خلقه، صنع الله الذي أتقن كل شيء.

الوجه الثالث والثمانون: قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد، لأن رؤساءهم وأساطينهم، أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث، لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم،

بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم. فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث؟ فهم كما قال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النور: ٣٩]. إلى آخر الآيات. والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم، حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء ونصوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة؛ فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علمًا ويقينًا وإيمانًا وطمأنينة به وبذكره، وسلوكًا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به، الموصل إلى كل خير وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وأن يصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وأتمها، ويسلم عليه تسليمًا كثيرًا هو وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحصل البركات.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢هـ.

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢هـ بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه.

